الواقعية في الدرس الحديثي عند الشيخ عبد الحميد بن باديس

بقلم
أ/ أكرم بلعمري (*)(**)

ملخص

يعالج هذا الموضوع قضية البعد الواقعي في الدرس الحديثي للشيخ ابن باديس من خلال استجلاء مكانة الحديث النبوي في فكر الشيخ، وتعمّده دقّة اختيار الأحاديث والتبويب لها بما يوصل الرسالة المقصودة بأقل عبارة وأفصح بيان، كونها موجهة لعموم الجزائريين بدرجة أولى، وقد تجلت معالم ذلك في دعوته للتمسك بالكتاب والسنة كأصلين للهوية الوطنية، ومغالبة ما ينتشر من بدع وسط المجتمع الجزائري، وإرساء مظاهر المدنية والتّحضر في أوساط الجزائريين، والدعوة للتعلم والتعليم والحث عليهما، كما أولى الشيخ المرأة مكانتها الأساسية في المجتمع الجزائري، كونها عصب الأسرة المسلمة، كل ذلك تأكيدا منه على عمق المعايشة للواقع الجزائري.

مقدمة:

تهدف هذه الورقة إلى تجلية أثر الواقع في معالجة مختلف المواضيع التي تمسّ المجتمع الجزائري؛ من خلال الدرس الحديثي عند الشّيخ ابن باديس، انطلاقا من الظروف التي كانت تعيشها الجزائر إبان الفترة الاحتلالية، كما تهدف إلى بيان عمق معايشة الشّيخ الرّئيس لأحوال

(*) أستاذ مساعد "أ" بشعبة العلوم الإسلامية ـ كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية ـ جامعة الوادي.
(**) باحث في الدكتوراه بقسم الكتاب والسنة ـ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة ـ الجزائر.

الجزائريين وما يلّم بهم من ملّمات بسبب ما كانوا يتعرضون له من محاولة مسخ للهوية العربية الإسلامية، إذ أن اختيار الإمام للنص الحديثي المقصود بالدراسة والتحليل والبيان، سواء ما كان منه مقالا منشورا في البصائر أو غيرها من مجلات الجمعية أو دروس مسجدية، ينّم عن وضع من الأوضاع أو حالة سائدة، ينطلق فيه ابتداء ممّا كانت تعيشه الجزائر آنذاك؛ ويرمي من خلال تلك المعالجة محاولة ربط النصوص الحديثية بما تعانيه الأمة الجزائرية، وتجلّى ذلك في حديثه عن قضية التعليم ومكانة المرأة وظاهرة البدع والخرافات المنكرة التي شاعت في فترة من الفترات في الوسط الجزائري ومحاولة دحضها؛ وبيان منزلة الكتاب والسنة في نفوس المسلمين وغيرها من مواضيع الساعة في عصره – رحمه الله–.

وسنحاول معالجة الموضوع من خلال العناصر التالية:

1- مكانة الحديث في فكر ابن باديس.

يتبوأ الحديث والسنّة النبوية منزلة متميزة في فكر الشّيخ عبد الحميد ابن باديس، ويرجع ذلك لطبيعة التكوين العلمي والثقافي الذين حظي بهما الشّيخ – كحال أقرانه من العلماء الجزائريين–، إذ المتتبع لأطوار حياة الشّيخ يلمس ذلك من محيطه الأسري، فهو من أسرة مشهورة بالعلم والفضل، ممّا جعله يتّم حفظ القرآن في سنّ مبكّرة، وما ذلك إلاّ من مزيد اهتمام الأسرة الجزائرية –آنذاك بالقرآن وسنّة النبي ﷺ– ولا شكّ أنّ المرحلة التّي قضاها الشّيخ في الدّراسة والتّدريس بجامع الزّيتونة كان لها الأثر البالغ في تمكّنه من العلوم الشّرعية عموما والسنّة النّبوية وعلوم التّفسير بوجه خاص، مضافا إليها تأثّره بأعمدة الفكر والإصلاح في تلك المرحلة فأخذه عن جماعة من كبار العلماء الأجلاّء، وفي طليعتهم زعيم النّهضة الفكرية والإصلاحية في تونس العلاّمة «محمّد النخلي القيرواني» المتوفى سنة: (1342هـ – 1923م)، والشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور المتوفى سنة: (1393هـ – 1973م)، ناهيك عن مرّبين آخرين من المشايخ الذّين كان لهم تأثير في توجيهه وتكوينه، وكذا رحلته إلى بلاد الحجاز عام 1913م، ومكوثه فيها حوالي ثلاثة أشهر، ممّا مكّنه من إلقاء دروس علمية في مسجد النّبي ﷺ، ثمّ طوافه ببعض الأمصار الإسلامية ولقاؤه للعديد من علماء مصر والشّام، ممّا أثّر في شخصيته تأثيرا بليغا تجلّى فيما بعد في حركته الإصلاحية.

ولعلّ ما يبرز مكانة الحديث النّبوي في فكر الشّيخ عبد الحميد بن باديس عكوفه على تدريس موطأ الإمام مالك في الجامع الأخضر بقسنطينة، وختمه في ربيع الثّاني سنة 1358هـ الموافق لـ جوان 1939م، وأقيم لذلك احتفال بتلك المناسبة السّعيدة حضرها العلماء والأعيان والأشراف وعموم النّاس.

والأمر الثّاني الذي يُجلّي تلك المكانة هو التزامه بتقديم دروس حديثية يصدّر بها مجلة " الشهاب" بعنوان "مجالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير وحديث البشير النّذير" أو جريدة "البصائر" أو "السنّة"[1] ولعلّ هذه الأخيرة فيها معنى لمزيد اهتمامه بالسنّة النبوية أن سمّى إحدى جرائد الجمعية بها، وكلّ هذه الدّروس الحديثية طبعت لاحقا تحت مسمى:" مجالس التّذكير من كلام البشير النّذير"، فكان لتلك الدّروس الأثر البالغ في دفع عجلة الإصلاح في الجزائر في تلك المرحلة؛ لما حوته من خطاب لعامّة الجزائريين وخاصّتهم فيه حثٌّ منه على ضرورة التغيير، فهذا وإن دل على شيء فإنّما هو مزيد عناية من الشّيخ -رحمه الله تعالى- بالقرآن الكريم وبالسنّة النّبوية، إذ يعتبرهما أصلان لا ينفصلان عن بعضهما البعض.

كما أنّه يعتبر أن سنّة النّبي ﷺ وحديثه هما المثال الأسمى لتجسيد معاني الشّريعة المطهّرة علما وعملا، لتحقيق الكمال الإنساني وفي ذلك يقول- بعد كلام عن آخر حديث في الموطّأ-:"... ونكتة أخرى وهو أن كلّ ما نأخذه من الشّريعة المطّهرة علما وعملا فإنّنا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية. والمثال الكامل لذلك كلّه هو حياة محمد ﷺ في سيرته الطّيبة فهذا الحديث[2] بعد ما تقدّمه من الكتاب كلّه مثل الغاية من الوسيلة فسيرته ﷺ هي الجامعة لمحاسن الإسلام والغاية لكلّ كمال...".[3]

2- مظاهر بروز فقه الواقع في الدّرس الحديثي عند الشّيخ الرّئيس:

لعلّ من ملامح بروز البعد الواقعي في الدّروس الحديثية للشّيخ ابن باديس أمران اثنان:

أ- انتقاء الأحاديث بما يتلاءم مع الموضوع المطروق.

لا ينطلق الشّيخ عبد الحميد بن باديس في دروسه الحديثية من فراغ، إنّما يكون مبدؤه في اختيار الدّرس الحديثي انطلاقا من حالة واقعية يعيشها الشّعب الجزائري، أو تمليها ظروف خاصة، وقعت أو محتملة الوقوع، فيعكف الشّيخ -رحمه الله- عليها بالبيان والتّوضيح، خاصّة وأن الجمعية قد أحدثت نقلة نوعية في تاريخ النّشر للجرائد، رغم الضّغوط التّي كانت تمارسها

فرنسا الاحتلالية، من أجل إسكات صوت الجمعية وعلمائها، لكن وعلى الرّغم من هذا وذاك، برزت الدّروس الحديثية في شتّى المجلاّت والجرائد نشرا منها للهدي النبوي.

ولعلّ من دلائل فقه الواقع في الدّرس الحديثي عند الشّيخ الرّئيس عبد الحميد بن باديس هو ذلكم الاختيار الذّي يوليه الشّيخ للحديث النّبوي بما يتلاءم مع الموضوع المراد معالجته، فإنّه كثيرا ما يختار الحديث الذّي يعبّر عن موضوع الباب تعبيرا صريحا، فمثلا من خلال دعوته الواقعية للعلم والتعليم وفي مقال بعنوان "مجالس العلم" اختار حديث أبي واقد اللّيثي[4] في إقبال ثلاثة نفر لمجلس رسول الله ﷺ وحال كلّ واحد منهم، وفي معرض دعوته لتعلّم اللّغات الأجنبية عن اللّغة العربية اختار حديث زيد بن ثابت[5] في أمر رسول الله ﷺ إياه بتعلّم لغة يهود السّريانية، وفي موضوع من كثّر سواد قوم فهو منهم[6] في إشارة لمن كثّر سواد الفرنسيّين أو والاهم اختار حديث أَبِي الأَسْوَدِ قَالَ: قُطِعَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَعْثٌ فَاكْتُتِبْتُ فِيهِ فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ فَأَخْبَرْتُهُ فَنَهَانِي أَشَدَّ النَّهْيِ ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ أُنَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكْثِرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ أَوْ يَضْرِبُهُ فَيَقْتُلُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾.[7]

وغيرها من النّماذج التّي توحي باختياره للنّص الحديثي بما يتلاءم مع الموضوع المراد معالجته.

أمّا ناحية الاختيار الأخرى هو أنّه كان يتحرّى الصّحيح من الحديث النّبوي، مبتعدا بذلك عن ما فيه مقال من حيث الثّبوت والصّحة على الأغلب، ففي تصفّح سريع لأهم الأحاديث التّي انتقاها نجد أنّه اختار أكثر من 29 حديثا، كانت أصول مقالاته التّي نشرها وهي مطبوعة في مجالس التّذكير من كلام البشير النّذير، أخرجها الشّيخان البخاري ومسلم أو أحدهما، وحوالي 12 حديثا أخرجها أصحاب السّنن الأربعة أو مالك في الموطأ، ممّا ينبئ عن صنعة حديثية ملكها الشّيخ رحمه الله، ليؤسس دعوته على الصّحيح الثابت من السنّة النبوية، ومن دلائل هذه الصّنعة هو كلامه عن بعض الأسانيد ورجالها؛ وعنايته ببعض ألفاظ المتون وليس المجال هنا لذكر منهجه في التّعامل مع الحديث، وإنّما القصد بيان الاختيار لهذه الأحاديث والذّي لا ينفكّ طبعا عن درايته بعلم الحديث النّبوي.

ب- دقّة التبويب للنصوص الحديثية.

سبق وأن قلنا أن الشّيخ -رحمه الله- كان ينتقي أحاديثه التي يصدّرها لمواضيعه باعتبارها

أحسن ما يعبّر عن موضوع الباب، فكان من عظيم معايشته للواقع الجزائري أن يُعنون ويُبوّب لذلك الحديث بعنوان يصبّ مباشرة في معناه، ولا يحتمل إلاّ معنى واحدا هو مقصوده، لأنّه يدرك أنّ هذا المقال الصّادر في إحدى جرائد الجمعية موجّه بالدرجة الأولى لعموم الجزائريين، فينبغي أن يكون واضحا يفهمه عاميّهم ومثقّفهم، ولو استعرضنا تلك العناوين وتأمّلنا الأحاديث التّي جاءت تحتها للمسنا ذلك جلّيا، فمثلا تبويبه لحديث: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[8] بـ"فضل السّجود والحثّ عليه"، أي أنّ العنوان مستقى من الحديث مباشرة دون تكلّف فيه، ولحديث " إنّما الأعمال بالنّيات" قال الشّيخ:" أثر النّيات في الأعمال"، ليبّنه من خلال العنوان فقط لأهمية النّية ومحلّها من قبول العمل والأجر عليه، أمّا ما يمسّ واقع الجزائريين – وكما ستأتي الإشارة إليه– نجد مثلا عنْونَته لحديث زيد في تعلّم لغة اليّهود "تعلم اللّغات المحتاج إليها" وكأنه أراد أن يقول: يا معشر الجزائريين نحن في حاجة لتعلّم اللّغات الأخرى لنجاهد بها أولا وننشر ديننا وثقافتنا ثانيا، وعداؤنا لفرنسا ومن خلفها لا يمنعنا من تعلّم لغتها"، ومثال آخر عنْونَته لمنّ كثّر سواد قوم، فإنّه أخذ من الحديث شطرا وجعله المعبّر عن الحديث وما يأتي ضمنه بقوله:" تكثير السوّاد، من كثّر سواد قوم فهو منهم"، ناهيك عن العناوين التي يصرّح فيها بحكم نهائي ليمحو بها واقعا سائدا أو يحيي سنّة أُبيدت، ومن ذلك عناوينه: " مجالس العلم والإقبال عليها و الإعراض عنها"، " من رغب عن سنّتي فليس منّي"،" دعوى الجاهلية أو الكلمة المنتنة"،" الرّاعي الغاشّ لرعيته"،" لَعْن من اتّخذ المساجد على القبور"، " تعليم النّساء الكتابة"، وغيرها من العناوين التّي توحي صراحة بالمقصود، ممّا ينّم عن إحاطة وإلمام واسعين بواقع الجزائريين.

3- تجلّيات الواقع في الدّرس الحديثي عند ابن باديس:

ومن دلائل تجلّي الواقع في دروس الشّيخ عبد الحميد بن باديس في دروسه الحديثية هو تلكم المواضيع التّي كان يتناولها بالدّراسة والتحليل؛ والتّي تمسّ الواقع كونها نابعة من صميم المعايشة لحال الجزائريين ومن ذلك:

- **الدّعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة:**

لعلّ من أعظم مبادئ جمعية العلماء المسلمين أن "الإسلام ديننا" كما في شعارها، ولا يتحقق ذلك إلاّ إذا تمسكت الأمّة الجزائرية بعُرى هذا الدّين، متمثلا في كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، فما فتئ

الشّيخ الرئيس يلّح في كلّ حلّ و ترحال، بقلمه أو لسانه، يدعو بني قومه إلى التّمسك بهذين الأصلين، يقينا منه أن سعي فرنسا الأول هو أن تمسخ هوية هذا الشّعب؛ وتبعده عن دينه وتقوّض لسانه وتسلبه أرضه، فانطلاقا من هذا الواقع الذّي تمليه الحياة تحت وطأة الاحتلال، كان لابدّ على الجمعية والشّيخ الرّئيس أن يرسّخ ويثبّت الجزائريين على تلك المبادئ العظيمة، ومن ذلك دعوته للتّمسك بالكتاب والسنّة، فتعددت مقالاته –التّي بين أيدينا اليوم– والتّي فيها دعوات صريحة وضمنية منه للحيلولة دون التخلّي عنهما، فشجّعت الجمعية على حفظ القرآن وتحفيظه؛ بفتحها للمدارس القرآنية في المداشر والقرى ناهيك عن الحواضر.

فتحت عنوان مقال " الاعتصام بكتاب الله"[9]، صدّره بحديث عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " أتاني جبريل، فقال: يا محمد؛ أمتك مختلفة بعدك، قال: فقلت له: فأين المخرج يا جبريل؟ قال: فقال: في كتاب الله، به يقصم الله كلّ جبّار، من اعتصم به نجا، ومن تركه، هلك (مرتين) قول فصل، وليس بالهزل، لا تخلقه الألسن، ولا تفنى عجائبه، فيه نبأ من كان قبلكم، وفصل ما بينكم، وخبر ما هو كائن بعدكم ".[10]

علّق على الحديث بتعليق مفاده صدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به من وقوع الاختلاف بين الأمّة، قال الشّيخ:" صدق رسول الله– صلى الله عليه وآله وسلم– فقد وقع الاختلاف، وقد دعونا الناس إلى المخرج، وهو كتاب الله، وسنة رسوله المبينة له، فقال المعاندون ما قالوا، إلا من كان يؤمن بأن محمدا رسول الله فليمتثل إرشاده، وقد أرشدنا إلى المخرج من هذا الاختلاف، فلنعمل بإرشاده، وهدانا إلى طريق الحق عند الالتباس فلنهتد. وقد وصف الله كتابه بقوله:﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾. فهو هدى بين واضح، لا يلتبس على مريد الحق التماس الهدى منه. ".[11]

ومن الاعتصام بالكتاب والسنّة العمل بهما، ونشرهما بين النّاس وذمّ التّعالم والتّباهي بهما، ففي مقال آخر بعنوان" مدح العامل بالقرآن"[12] شرحا لحديث أبي موسى الأشعري ﷺ عن النّبي ﷺ قال: « الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالْمُؤْمِنُ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَعْمَلُ بِهِ كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَرِيحُهَا مُرٌّ».[13]

قال الشّيخ: " وقد دلّ الحديث على أنّ العمل بالقرآن درجتين أعلاهما الجمع بين التّلاوة والعمل. ودلّ على أن لمخالفة أوامره ونواهيه دركتين؛ أدناها الجمع بين الإعراض عن حفظه والإضراب عمّا دعا إليه".[14]

أمّا بخصوص ذمّ المباهي والمتعيّش بالقرآن فإنّه قال في صدر مقاله لحديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النّبي ﷺ:« تعلّموا القرآن واسألوا الله به قبل أن يتعلّمه قوم يسألون به الدّنيا، فإنّ القرآن يتعلّمه ثلاثة نفر: رجل يباهى به، ورجل يستأكل به، ورجل يقرأه لله».[15]

قال الشّيخ:" وقد دلّ الحديث على ذمّ المباهي بتلاوته؛ وكثيرا ما يقصد قرّاء زماننا المباهاة بأصواتهم والفخر بحفظهم، ولا سيما إذا كانوا يتلون مجتمعين بصوت واحد، فليحذر من يجد هذا من نفسه وليعلم أنّ كتاب الله هداية تخشع لها القلوب، وتستسلم الجوارح. ودلّ أيضا على ذمّ المسترزق بالقرآن، وكثير من قرّاء زماننا لا يقصدون من حفظه إلاّ التوسل به للتلاوة على الموتى بأجرة ونحو ذلك من الأغراض الدّنيوية المحضة".[16]

كلّ هذا تأكيدا منه على حفظ منزلة القرآن ومن بعده السنّة الشريفة، ليزيد الاعتصام والتمسك بهما في الأقوال والأفعال، حفظا لهذه الأمة من الانسلاخ، وفي إشارة ضمنية له إلى منزلة السنة النبوية نشر مقالا في مجلّة " السنة" في عددها الأول من سنتها الأولى في 13محرم 1352هـ الموافق لـ 8 ماي 1933م بعنوان " السّنة والبدعة"[17]، لم يزد فيه على أحاديث رسول الله ﷺ، حديث العرباض بن سارية ﷺ في الموعظة[18]، وحديث جابر ﷺ في أفضل الهدي[19]، وحديث أبي هريرة ﷺ سيكون في أمّتي دجّالون كذّابون[20]، ولم يتدخّل فيه بكلمة واحدة في إشارة منه إلى التّمسك بالسّنة النبوية واجتناب ما ينافيها من بدع وضلال.

- **ظاهرة البدع في الوسط الجزائري:**

إنّ الواقع الذّي كان يعيشه الجزائريون تحت ليل الاحتلال الفرنسي، وتخييم الجهل على العقول، جعل الجمعية والشّيخ ابن باديس يناضلون على جبهات متعددة، ولعلّ ومن أعقد تلك الجبهات التّي انتشرت بكثرة في تلك الحقبة الزّمنية هي انتشار البدع بين النّاس، حتىّ أضحت البدعة سنّة والسنّة بدعة، ففي ذلك يقول:" هذا الذّي وقع ...كثيرا ما يقع مثله أو نحوه من أهل الجهل والبدعة الذين شبّوا عليها وشاخوا؛ حتىّ صارت البدعة عندهم سنّة والسّنة بدعة، فإذا ذكرت لهم الحكم الشرعي بدليله من الكتاب والسنّة صدّوا ونفروا وأبوا واستكبروا وصارحوا

بالمخالفة أو سكتوا وأضمروا الخلاف وما هذا شأن المؤمنين...".[21]

ممّا جعل الشّيخ – رحمة الله عليه- يكثر من الدّروس الحديثية حول هذه المسألة بالذات، وبعناوين لمقالات متعددة ليُبيّن فيها أنواع تلك البدع وخطرها على المجتمع المسلم، ومن بين هذه المقالات:" لعْن من اتخذ المساجد على القبور"[22]، " النّهي عن البناء على القبور"[23]، " بناة المساجد على القبور من شرار الخلق عند الله يوم القيامة"[24]، " تأكيد النّهي عن اتخاذ القبور مساجد"[25]، " من اتخاذ القبور مساجد: الصّلاة إليها".[26] وكلّ هذه العناوين كانت تصدر تبعا من أجل الحدّ من ظاهرة البناء على القبور.

ففي مقال له بعنوان "الشّرك والوثنية ودعوى النّبوة"[27] شارحا لحديث ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :" لا تقوم السّاعة حتّى تلحق قبائل من أمتيّ بالمشركين وحتّى يعبدوا الأوثان، وإنّه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلّهم يزعم أنّه نبّي، وأنا خاتم النبيّين، لا نبيّ بعدي".[28]

عكف الشّيخ وهو يشرح الحديث لبيان أصناف البدع في واقع الجزائريين محذّرا منها ومن اللّحاق بها، قال:" وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تتوجه لبعض الأموات وتتضرع لهم وتقف أمام قبورهم بخضوع وخشوع تامين وتتضرع وتناديهم على اعتقاد أنهم يقربونها إلى الله ويتوسطون لها إليه. ويزيدون أنهم يتصرفون لها بقضاء الحوائج وجلب الرغائب ودفع المصائب، ومن أعمال المشركين في الجاهلية أنهم يسوقون الأنعام لطواغيتهم فينحرونها عندها طالبين رضاها ومعونتها. وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تسوق الأنعام إلى الأضرحة والمقامات تنحرها عندها إرضاءً لها وطلبا لمعونتها أو جزاء على تصرفها وما جلبت من نفع أو دفعت من ضر، ومن أقوال المشركين في الجاهلية حلفهم بطواغيتهم تعظيما لها.وفي الناس اليوم طوائف كثيرة يحلفون بالله فيكذبون ويحلفون بمن يعظمونه من الأحياء أو الأموات فلا يكذبون".[29]

ويزيد هذا بيانا على أن هذه الأصناف وغيرها في واقع النّاس كثير، فعلى العلماء أن يهبّوا لتخليص النّاس منها امتثالا لفعل النبي ﷺ، و اقتداءً بالعلماء الصالحين، فيقول:" هذا كلّه واقع في الأمة لا شكّ فيه، وكما كان من نصح نبيها ﷺ أن أنذرها بوقوعه فيها قبل وقوعه – فإن من نُصح علمائها لها أن يعرفوها به اليوم بعد وقوعه، ويصوروه لها على صورته الشركية الوثنية التي ينفر منها المسلم بطبعه. ولو أنّ الأمة سمعت صيحات الإنكار من كلّ ذي علم لأقلعت عن ضلالها، ورجعت إلى رشدها فما أسعد من نصحها من أهل العلم وجاهد لإنقاذها. وما أشقى

من غشّها وزادها رسوخا في ضلالها، وتماديا في هلاكها، فحيّهلا على العمل أيّها المصلحون النّاصحون المخلصون، فإنّ عهد الغشّ والخديعة قد آذن بذهاب، وأن الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب".[30]

ومن أشنع البدع التّي انتشرت في زمنه وعظمت بها البليّة هي بناء المساجد على القبور، فعنون الشّيخ مقالا له " بناء المساجد على القبور من فعل شرار الخلق عند الله يوم القيامة" وصدّره بحديث عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَذَكَرَتَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فقال: "إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ".[31]

فبيّن -رحمه الله- أنّ هذا الحديث صريح في المنع من بناء المساجد على قبور الصّالحين، وتصوير صورهم، وفيه الوعيد الشديد على ذلك، أمّا الامتثال الواقعي بهذا الحديث فيتجلّى في نظر الشّيخ في إنكار هذا الفعل كما ننكر باقي المنكرات، فوصف حالة الجزائريين في هذه المسألة بقوله:" هذه هي حالتنا اليوم معشر مسلمي الجزائر وأحسب غيرنا مثلنا. تجد أكثر أو كثيرا من مساجدنا مبنية على القبور المنسوب أصحابها إلى الصّلاح، ومنهم من كانوا معروفين بذلك ومنهم المجهولون. فإن قيل: إنّما بنيت المساجد على تلك القبور للتّبرك بأصحابها لا لعبادتهم. قلنا: إنّ النّهي جاء عاما لبناء المسجد على القبر، بقطع النّظر على قصد صاحبه به، ولو كانت صورة البناء للتبرك مرادة بالنهي لاستثناها الشّرع، فلمّا لم يستثنيها علمنا أن النّهي على العموم، وذلك لأنّها وإن لم تؤدّ إلى عبادة المخلوق في الحال فإنها في مظنة أن تودي إلى ذلك في المآل. وذرائع الفساد تسدّ، لا سيما ذريعة الشّرك ودعاء غير الله التّي تهدم صروح التّوحيد".[32]

ويختم مقاله بضرورة الإيمان والامتثال لما في هذا النّص النّبوي من بيان وإرشاد، وإنكار لما هو عليه واقع القبور دون التّعرض لأصحابها بأذية، فيقول:" علينا أن نصدّق بهذا الحديث بقلوبنا، فنعلم أن بناء المساجد على القبور من عمل شرار الخلق كما وصفهم النّبي ﷺ، وأن تنطق بذلك ألسنتنا كما نطق به هذا الحديث الشّريف، وأن نبني عليه أعمالنا، فلا نبني مسجداً على قبر ولا نُعين عليه، وأن ننكره كما ننكر سائر المنكرات حسب جهدنا، ومن أعظم الإنكار تبليغ هذا الحديث بنصّه، وتذكير النّاس به، والعمل على نشره حتّى يصير معروفا عند عامّة النّاس وخاصّتهم، إذ لا دواء للبدع الشيطانية إلاّ نشر السنّة النّبوية، ولا نستعظم انتشار هذه البدعة

وكثرة ناصريها؛ فإنّها ما انتشرت وكثر أهلها إلا بالسّكوت عن مثل هذا الحديث والجهل به. ولنكن في إرشادنا مقتصرين على إيراد لفظ الحديث وشرحه -على أنّه واضح مفهوم بنفسه- دون أن نمسّ شيئا من شؤون أولئك المقبورين، فإنّهم إخواننا سبقونا بالإيمان، فلهم علينا حقّ الدّعاء والاستغفار، فإذا عملنا كلّنا على هذا من حسن قصد ومحبّة في الخير للمسلمين، رجونا أن يؤيدنا الله تعالى، ويجعل النفع بأيدينا، ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.[33]

- **مظاهر المدنية:**

شكلّت منظومة التحضّر حيّزا كبيرا في فكر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ وعلى رأسها الشّيخ الرّئيس عبد الحميد بن باديس، باعتبارها حاملة لواء الإصلاح على مستوى جميع المقاييس، إنْ على المستوى العقدي بعملها على ترسيخ العقيدة الإسلامية؛ أو على المستوى الثقافي بسعيها لتشجيع التعلّم والتّعليم، أو على المستوى السياسي بنضالها المستمر ضد الاحتلال الفرنسي.

كما أولت الجمعية مسألة الوعي المدني ومظاهر المدنية اهتماما بالغا، في أبسط مفاهيمها ومستوياتها، على اعتبارها من أخلاق المسلمين، وكأنموذج على ذلك نجد الشّيخ عبد الحميد بن باديس -رحمة الله عليه- يؤكّد في العديد من المناسبات على مسألة نظافة المحيط العام للجزائريين - كونه كان يتحرك بينهم، يتفاعل مع ما يتفاعلون به ويتأثر بما يتأثرون-، وعلى ضرورة أن تكون طرقنا ومجالسنا -كمسلمين أولا وكجزائريين ثانيا- خالية ممّا تنفر منه النّفس البشرية من الأقذار، ففي شرحه لحديث:" اتقوا اللّعانيْن"، قالوا: وما اللّعانان يا رسول الله؟، قال:" الذّي يتخلّى في طريق النّاس أو في ظلّهم".[34] بسّط مراد الحديث للسّامعين والقارئين بقوله:" المعنى إذا أردتم قضاء الحاجة فاجتنبوا الطّرقات، واجتنبوا الأماكن التّي اتّخذها النّاس للجلوس في ظلّها، ومن تخلّى في واحد من هذين فإنّه يجلب على نفسه لعنا كثيرا".[35] ثم راح يدعو الجزائريّين إلى ضرورة إزالة شتى أنواع المستقذرات من طرقهم ومجالسهم، وهي الفائدة العملية التّي يدعو إليها الحديث، حاثّاً لهم على هذا المظهر المهمّ من مظاهر التّمدّن والتّحضّر، ففي ذلك يقول:"...كما انتظم الحديث الصحيح المتقدم النّهي عن تقذير الطّرقات والأماكن العّامة بذلك التّرهيب الشّديد، كذلك جاء التّرغيب في تنقيتها وإزالة الأذى عنها شاملا ذلك، ما كان من المستقذرات وغيرها من كل ما فيه أذى، فقد ثبت في الحديث الصّحيح أن أبا برزة

الأسلمي ﷺ قال للنّبي ﷺ: يا نبّي الله علمني شيئا انتفع به؟ فقال ﷺ:" أعزل الأذى عن طريق المسلمين"[36]، وثبت قوله ﷺ:" بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطّريق فأخرّه فشكر الله له فغفر له"[37]، وإذا كانت إزالة الأذى عن الطريق- ومثلها كل مجتمع عام- فيها الأجر والمثوبة، فوضع الأذى فيه الإثم والعقوبة."[38]

ويختم شرحه لهذا الحديث بتطبيق واقعيّ يمسّ واقع معيشة الجزائريين ومحيطهم، في إشارة ضمنية منه على إلزامية التّنظيف للمحيط العام، وأنّ الإسلام قد أرسى أسس هذا المبدأ قبل المدنيّة الغربية، فيقول- رحمه الله-:" من أحسن المصالح التّي يقوم عليها اجتماع النّاس في التمدّن الحاضر وألزمها مصلحة التنظيف في الإدارات البلدية، وأنت ترى أنّ الأحاديث النّبوية المتقدمة قد انتظمت ذلك التّنظيف بالتّرهيب من التّقذير وكل مؤذ، والتّرغيب في إزالتهما، فوضع الإسلام بذلك أصل هذه المصلحة قبل أن يعرفها تمدّن اليوم. فعلى المسلم أن يلتزم ذلك كأمر ديني يثاب عليه عند ربّه، ليكون دافعه إلى القيام بذلك من نفسه، ورقيبه في تنفيذه ضميره الدّيني وإيمانه، وقد شهد التّاريخ لمدن الإسلام أيام مدنيته الزّاهرة بانفرادها بين مدن عصرها بالنّظافة وحسن المظهر، وما ذلك إلا من تطبيق مثل ما تقدّم ممّا وضعه الإسلام من أصول المصالح التّي تقوم عليها الحياة، ويترقى بها المجتمع، فعلينا – معشر المسلمين- أن نُعنى بها دعتنا إليه الأحاديث النبوية الشريفة لنكون بين الناس مثلا حسنا راقيا في النّظافة البلدية، لنفع أنفسنا ومجتمعنا ونرفع اسم ديننا، ونفوز بالأجر و الرضى من ربنا..."ا.هـ.[39]

- **التعلم والتعليم والحث عليهما:**

وهو من أولويات جمعية العلماء المسلمين ومن ورائها رئيسها، خاصة في تلك المرحلة التّي اتّسمت بعموم الجهل، وتكريس الاحتلال له وغلق كافّة السّبل إليه، دعت الضّرورة لمجابهة كلّ ما من شأنه أن يشيع ذلك، فلم يفتأ ابن باديس في كلّ لحظة وحين، وكلّ مناسبة دينية أو وطنية، إلاّ ويدعو من خلالها بني أمته إلى تعلّم العلم والحرص عليه، يقينا منه لأهمية ذلك، وعدّه من أوكد الواجبات بالنّسبة للمسلم عموما؛ والجزائري خصوصا، فقال- بعد كلام طويل حول فريضة طلب العلم-:" ... فإنّه يلوح من كلام الأئمة المتقدّم أن طلب العلم على وجهين:

أحدهما الاشتغال بتحصيل مسائله والانقطاع إلى تعلّم قواعده، وهذا هو الواجب كفاية، وثانيهما السّؤال عن حكم ما نزل به من أمر دينه واستفتاء أهل العلم فيه، وهذا واجب عينا،

فاحفظ هذا الضّابط واعتبرْ به مسائل دينك يسهل عليك الفرق بين ما هو واجب على عموم المسلمين يسقط عنهم بوجود عالم بينهم، وما هو واجب عليك في خاصة نفسك لا تبرأ منه ذمتك إلاّ بمعرفته".[40]

ومن دلائل حرصه على حثّ النّاس على تعلّم العلم وطلبه وبذل المجهود في ذلك ومعايشته لواقعهم، أنّه كثيرا ما بوّب حوله فيما ينشره من دروس حديثية عبر البصائر وغيرها، ومثال ذلك:

قوله: "العلم وتعلّمه" وساق بعده ثلاثة أحاديث عن عبد الله بن عباس ﷺ في هذا الأمر، أولها:" أن الرّجل لا يولد عالما، وإنّما العلم بالتّعلّم"، وقوله أيضا عن النّبي ﷺ:" من جاءه أجله وهو يطلب علما ليحيي به الإسلام لم تفضله النبيون إلاّ بدرجة"، أما الأثر الثّالث ففي سعي ابن عباس رضي الله عنهما في طلب العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ممّن سبقه لسماعه، وكونه كان يسعى لذلك، واستخلص الشّيخ الرئيس من ذلك فائدتين في الثانية منهما دعوة للأخذ بالأسباب في طلب العلم وكأنه يحثّ بني قومه على ذلك وعدم الاكتفاء بالدّعاء لتحصيله:

قال:" أولاهما- أي الفائدتين- حسن أدب آل رسول الله ﷺ ...، ثانيهما سعي ابن عباس ﷺ في العلم ذلك السّعي وهو الذّي روى عنه البخاري في صحيحه أنّه قال:" ضمّني النّبي ﷺ إلى صدره وقال اللّهم علمه الحكمة"، فلم يتّكل على دعاء رسول الله ﷺ وهو يؤمن بقبوله لأنّه يفهم أنّ الدّعاء بالشّيء دعاء بتيسير أسبابه فالدّعاء لا ينافي تعاطي الأسباب، بل من الدّاعي أو المدعو له أن لا يهمل الأسباب اكتفاء بالدّعاء" [41]

كمّا بوّب بابا آخر في " العلم وتعليمه" وساق فيه جملة من الآثار التّي تحثّ على ما جاء في عنوان الباب من ضرورة تعليم النّاس العلم والسعي في نشره، ومن جمله ما ساق تحته:

أثر عن إبراهيم النخعي[42] في رجحان كفّة حسنات السّاعي لتعليم العلم، وحديث عن معاذ ابن جبل ﷺ مرفوعا وموقوفا:" تعلّموا العلم فإن تعليمه لله خشية، وطلبه عبادة،..."[43]، وآخرها قول لكعب الأحبار: " أوحى الله إلى موسى تعلم الخير، و علّمه الناس، فإنّي منوّر لمعلّم العلم ومتعلّمه قبورهم حتىّ لا يستوحشوا لمكانهم". [44]، وفي كلّ ذلك دعوة ضمنية منه لتعليم النّاس العلم، خاصة مع ما تعانيه الجزائر وقتذاك من شيوع جهل فاضح، وخرافة زائفة، تصبّ كلها في مصلحة فرنسا، لأنّ تعلّم الشّعب الجزائري يعدّ في أول الأمر صدمة للاحتلال، وتتذوّق

الأمّة الجزائرية مفهوم الحرّية وتسعى لها، ممّا يعني زوال كيان المحتل، ولفقه جمعية العلماء المسلمين لهذه المسألة ومن ورائها الشّيخ الرّئيس، راحت تسعى جاهدة لنشر العلم وتعليمه، وفتح المدارس في القرى والمداشر والمدن، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، إدراكا منها لأهمية شيوع العلم بين النّاس، ولعلّ أوّل المدارس التّي اتخّذها الشّيخ الرّئيس لهذه العملية هي المساجد، فجعل عنوانا لخبرين أولها عن ابن عباس ﷺ لمآ سئل عن الجهاد، فأجاب السّائل:" ألا أدلّك على ما هو خير لك من الجهاد؟ تبني مسجدا تعلّم فيه القرآن وسنن النّبي ﷺ والفقه في الدّين"[45]، والثّاني عن أبي بكر بن عبد الرحمن أنّه كان يقول:" من غدا أو راح إلى المسجد لا يريد غيره ليتعلم خبرا أو ليعلّمه، ثمّ رجع إلى بيته كان كالمجاهد في سبيل الله رجع غانما".[46]

وفي ذلك دعوة من الشّيخ إلى ضرورة الابتداء بالتعلّم في المساجد كونها دور علم وعبادة، منها تبدأ الخطوات الأولى للجزائري في طلبه العلم وتحصيله المنافع، وهي بداية دحض الاحتلال، باللّوح والقلم والكتّاب.

ومن عظيم اشتغال الشّيخ الرّئيس بالعلم وتعليمه وتنزيله لواقع الناس، أنّه لا يمرّ بحديث أو آية أو أثر إلاّ ويستنبط منه دررا يضيء بها سماء الجزائريين وأبصارهم، ومن ذلك فوائده التّي استنبطها بعد ذكره لحديث أبي واقد الليثي ﷺ:" بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد والنّاس معه إذ أقبل نفر ثلاثة؛ فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فلما وقفا على مجلس رسول الله ﷺ سلّما، فأمّا أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأمّا الآخر فجلس خلفهم، وأمّا الثّالث فأدبر ذاهبا، فلمّا فرغ رسول الله ﷺ قال:" ألا أخبركم عن النّفر الثّلاثة، أمّا أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأمّا الآخر فأعرض فأعرض الله عنه".[47]

قال مبرزا تلك الدّرر المتعلقة بواقع تعليم العلم، وفيها ترغيب منه في ذلك: [48]

الأولى: الجلوس في المساجد حلقا للتعلّم والتّعليم.

الثّانية: تعليم النّاس ووعظهم وإرشادهم في المساجد، وهذا ممّا أجمع عليه المسلمون في جميع الأعصار...

الثالثة: التّحليق للعلم وتنظيم الحلقة وسدّ فرجها فهي في ذلك كصفوف الصّلاة...

الرّابعة: فضل الإقبال على مجالس العلم وكراهة الإعراض عنها إلا لعذر.

الخامسة: بيان أحكام الأعمال التي تقع أمام الناس حين وقوعها ليرسخ علمها ويتعظ بها فيها.

السّادسة: لوم من زهد في الخير ولم يحرص عليه وإن لم يكن ذلك الخير من الواجبات عليه في تلك الحال.

فتأمّلْ هذه الفوائد والأحكام التّي يستنبطها الشّيخ الرّئيس من نصّ حديثيّ واحد وفي عمومها دعوة للعودة لما كانت عليه أحوال المساجد في عهده ﷺ، وأدائها لدورها الفعال في التّعليم كونها منابر لنشر الفضيلة ووأد الجهل والرذيلة.

- **مكانة المرأة وقيمتها في المجتمع المسلم:**

اتّخّذت قضّية المرأة في فكر ابن باديس حيّزا مهّما ومكانة متميزة لا تنفك عن مكانة الرّجل المميزة في بناء الأمّة الجزائرية والسّعي بها لتخليصها - أي الجزائر- من براثن الاحتلال الفرنسي، وكون المرأة في المحيط الاجتماعي الجزائري هي الأم وهي الزوجة وهي الأخت وهي البنت، ما فتئ الشّيخ الرّئيس يوليها اهتماما بالغا ليقينٍ منه أنّ صلاحها به تصلح الأجيال، التي يأمل فيها الشّيخ أن تحمل وتتولىّ راية الإصلاح والتّغيير الذّي ينشده، خاصّة في تلك الحقبة التيّ عانت من ويلاتها الجزائر، فكثيرة هي المجالس التيّ يعقدها الشّيخ الرئّيس ويتخذّها منابر للتوجيه والإرشاد، فلا تمرّ به مناسبة إلاّ وينوّه بقيمة المرأة في المجتمع الإسلامي، وأنّ الإسلام قد كرّمها و حباها منزلة تندر لدى مثيلاتها، وتعود خصوصية ذلكم التّذكير الذّي تحظى به المرأة لما كان يعايشه الشّيخ رحمه الله من سلوكات الفرنسيين والمستوطنين في الجزائر، وتلكم الشاكلة التي كانت عليها المرأة الغربية في محيطها الاحتلالي وما تعانيه من تفسخ فاضح.

فأكدّ في مناسبات متعددة مكانة المرأة وقيمتها، منوّها بكمالها ونفي صفات النقص التي توصف بها تعسّفا في فهم النصوص، فتحْت عنوان" النساء والكمال"[49] وهو يشرح حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:" كمل من الرجال كثير، ولم تكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وأن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام".[50]

فبيّن الشّيخ -رحمة الله عليه- " أن الكمال الإنساني متوقف على قوة العلم وقوة الإرادة وقوة العمل، فهي أسس الخلق الكريم، والسلوك الحميد، اللذين ينهض بهما بجلائل الأعمال، ويبلغ

بهما إلى أسمى المراتب وغايات الشرف والكمال، والمرأة لما خلقت لقسم الحياة الداخلي أعطيت من القوى الثلاث القدر الذي تحتاج إليه منها، وهو دون ما يحتاج إليه الرجل الذي خلق للقيام بقسم الحياة الخارجي، فكانت بخلقتها أضعف منه في العلم والإرادة والعمل، فكانت لذلك دونه في الكمال، وتقسيم الحياة إلى قسميها ضروري لبقاء النسل وحفظه، وتقسيم وظيف الحياة بين الرجل والمرأة، وإعطاء كل واحد منهما القدر الذي يحتاج إليه في وظيفه من بديع صنع الحكيم الخبير، فلو لم يعط الرجل ما أعطى من كمال القوى لما استطاع القيام بالأعمال الكبيرة في قسمه، ولو أعطيت المرأة مثل ما أعطي لما صبرت على البقاء في قسمها فأخلته، فاختل النظام فحصل الفساد...".[51]

ويقول في موضع أخر وهو يشرح حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ خطب أم هانئ بنت أبي طالب، فقالت: يا رسول الله: إنّي قد كبرت ولي عيال، فقال رسول الله ﷺ :" خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على رجل في ذات يده".[52] قال الشّيخ:" يبيّن لنا هذا الحديث الشريف ما خلقت له المرأة من العمل العظيم في الحياة، ويرشدنا بذلك لوجوب القيام عليها وتهيئتها لذلك بالتربية والتعليم، فتكون تربيتنا وتعليمنا لها بما يقوي فيها هذه الصفات: العفة وحسن تدبير المنزل والنفقة فيه، والشفقة على الولد وحسن تربيته، وكل زيادة على هذه – بعد تهذيب أخلاقها، وتصحيح دينها، وتحبيبها في قومها– فهي ضارّة بها، أو مخرجة لها عن مهمتها العظيمة، ملحقة الضرر بقومها، فلنجعل هذا الحديث الشريف دليلنا ومرشدنا في كل ما نسعى إليه من تعليم النساء والبنات".[53]

فكمال المرأة – في نظر الشّيخ الرئيس رحمه الله– يحصل لها بثلاث أمور: قوة الإرادة وقوة العلم وقوة العمل، لكن كل هذا في المكانة الطبيعية لها في منزلها كما سماه القسم الداخلي، ومثل لذلك بالصورة العكسية التي حصلت للمرأة الغربية لما تخلت – أو أخليت– من كمالها الطبيعي وراحت تزاحم الرجل فيما اختص به آلت الأسرة إلى الزوال، ففي ذلك يقول:" ...ونحن نرى اليوم المرأة في المدنية الغربية ومقلّديها لما خيّل إليها أنها قوية مثل الرجل هجرت وظيفتها أو أهملتها، وخرجت تزاحم الرجل في وظيفته فأضّرت بالقسم الداخلي من الحياة بإهماله واضطرابه، وأضرت بالقسم الخارجي بمزاحمة الرجل وزحزحة قسم كبير منه عن العمل، وتعريضه للفتن، والأمم الغربية اليوم تشكو مرّ الشكوى من تفكك نظام الأسرة وانحلال رباط

الأخلاق الزوجية، وبعضها عاجز عن تدارك أمره بما فيه من فوضى الآراء، وتشعب الأهواء، وتأصل الداء، وبعضها أخذ يعالج الحالة بما فرضه على العزابة من ضريبة مالية، وما جعله من مكافآت للمتزوجين والمتزوجات".[54]

ويختم الشّيخ الرئيس شرحه لحديث أبي موسى الأشعري ﷺ وبعد كلامه في كمال مريم ابنة عمران وآسية وعائشة -رضي الله عنهم- يوجه خطابه للسيدات بضرورة الاقتداء بهنّ، وتحصيل الكمال، ويؤكد على أن هذا من عمل الجمعية وعلمائها، مما ينبئ على معايشة واقع الأم والزوجة والأخت والبنت الجزائرية وما هي بحاجة إليه، فيقول:" ...فعلينا أن نكمل النساء تكميلا دينيا يهيئهن للنهوض بالقسم الداخلي من الحياة وإعداد الكاملين ومساعدتهم للنهوض بالقسم الخارجي منها، وبذلك تنتظم الحياة انتظاما طبيعيا تبلغ به الإنسانية سعادتها وكمالها"[55]، فكم في هذا الكلام من عمق نظر في الرؤية الإصلاحية الباديسية، تتعدى قطرية الجزائر، إلى العالمية الإنسانية.

ولا يكون هذا الكمال الذي ينشده الشّيخ عبد الحميد بن باديس للمرأة الجزائرية إلاّ بكمال تعليمها والحرص عليه، فيبين ذلك من خلال شرحه لحديث أبي سعيد الخدري ﷺ: قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوما من نفسك، فوعدّهن يوما لقيهنّ فيه، فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن: ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابا من النار، فقالت امرأة واثنتين؟. فقال: واثنتين".[56]

قال الشّيخ مبرزا أهمية التعليم للمرأة أهميته للرّجل: " الأحكام والفوائد: النساء شقائق الرّجال في التكليف فمن الواجب تعليمهنّ وتعلّمهن، وقد علّمهن ﷺ وأقرّهنّ على طلب العلم، واعتز بهنّ وتفقدهنّ"، واستشهد على ذلك بحديث ابن عباس ﷺ: أن رسول الله ﷺ خرج ومعه بلال فظنّ أنّه لم يسمع النساء فوعظهنّ وأمرهنّ بالصدقة فجعلت المرأة تلقي القرط والخاتم وبلال يأخذ في طرف ثوبه".[57]

ولا يكمل تعليم المرأة وتعلّمها إلا بتعليمها الكتابة، فعقد لحديث الشفاء بنت عبد الله[58] قالت: دخل عليّ النبي ﷺ وأنا عند حفصة، فقال لي: ألا تعلّمين هذه رقية النّملة كما علّمتها الكتابة".[59] بابا عنونه " تعليم النساء الكتابة" وراح يبرز ويبيّن بالأدلة ويستنبط مشروعية تعليم النساء للكتابة، ليس شكاً منه في ذلك، وإنّما لمزيد بيان للسّامعين والقارئين ممن تحدثّهم أنفسهم

بعدم جدوى تعليم المرأة، وختم الباب وشرح الحديث بقوله:" الاقتداء: فاستنادا إلى هذه الأدلة، وسيرا على ما استفاض في تاريخ الأمة، من العالمات الكاتبات الكثيرات- علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا ونسائنا، على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء، وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة، وبذلك نستحق أن نتبوأ منزلتنا اللاّئقة بنا والتي كانت لنا بين الأمم".[60]

الخاتمة

في الختام يمكن أن نقول أن الشّيخ عبد الحميد ابن باديس كان يتحرّى عمق الواقعية فيما كان يعالجه من مواضيع تتعلق بحال الجزائر والجزائريين، ويمكن إيجاز مظاهر ذلك التحرّي في النقاط التالية:

- دقّة اختيار الأحاديث والتبويب لها بما يوصل الرسالة المقصودة بأقل عبارة وأفصح بيان، كونها موجهة لعموم الجزائريين بدرجة أولى.
- الدّعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه ومجابهة كل ما من شأنه أن يحيد بالجزائريين عنهما من بدع وخرافات.
- الحرص على مكانة المرأة في المجتمع الجزائري وتعليمها، وإعدادها لتولي شؤون التربية والإصلاح المنزلي.
- نشر ثقافة التّمدن والتّحضر في أوساط الجزائريين من خلال إشاعة مظاهر المدنية في المجتمع الجزائري.
- التأكيد على إلزامية تعلّم العلم وتعليمه، وإشاعته بين أبناء الجزائر مساهمة منه في وأد الجهل وقهر الاحتلال الفرنسي.

ويبقى الشّيخ عبد الحميد ابن باديس أسوة بعد النبي ﷺ لمن يتولى راية الإصلاح والتغيير، كونه أعطى بنضاله وجهاده المثل الأسمى للدّعاة والمصلحين، فجزاه الله عن أبناء الجزائر خيرا، وتغمده بشآبيب الرحمة والغفران، إنّه وليّ ذلك و القادر عليه.

ـ الهوامش:

1- والمكانة ظاهرة في تسمية إحدى الجرائد بـ " السنة".

2- يقصد بذلك آخر حديث في الموطأ وهو حديث: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْعَاقِبُ».

3- عمار طالبي: آثار ابن باديس، ط1، الشركة الجزائرية، 1968م، 2/ 309.

4- سيأتي الكلام عن هذا الحديث.

5- ابن باديس: مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط1، 1983م، ص 71.

6- مجالس التذكير: ص 88.

7- البخاري: الصحيح، ت مصطفى ديب البغا، كتاب التفسير، سورة النساء، دار ابن كثير، بيروت، 1407هـ، رقم 4320، 4/1678. - سورة النساء، الآية:97.

8- هو حديث رِبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: «سَلْ»، فَقُلْتُ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟»، قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ» . رواه مسلم، الصحيح، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، دار الأفاق، بيروت، دط، دت، 2/52.

9- مجالس التذكير: ص 204.

10- أحمد: المسند، ت شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط2، 1420هـ، 2/112.

11- - مجالس التذكير: ص 205.

12- مجالس التذكير: ص 206.

13- البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام، 4/1917.

14- مجالس التذكير: ص 207.

15- نسبه الشّيخ لأبي عبيد في فضائل القرآن.

16- مجالس التذكير: ص 208.

17- مجالس التذكير: ص 188.

18- الترمذي: السنن، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل اتباع السنن واجتناب البدع، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 5/44.

19- مسلم: الصحيح، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، 3/11.

20- مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل ...، 8/189.

21- مجالس التذكير: ص 177.

22- مجالس التذكير: ص 152.

23- مجالس التذكير: ص 153.

24- مجالس التذكير: ص154.

25- مجالس التذكير: ص 155.

26- مجالس التذكير: ص 156.

27- مجالس التذكير: ص 95.
28- الترمذي: السنن، كتاب الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يخرج دجالون، 4/499.
29- مجالس التذكير: ص 94.
30- مجالس التذكير: ص 97.
31- البخاري: الصحيح، كتاب أبواب المساجد، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية، 1/165.
32- مجالس التذكير: ص 151.
33- سورة الحج، الآية:40. مجالس التذكير: ص 152.
34- مسلم: الصحيح، كتاب الطهارة، باب الذي يتخلى في الطرق والظلال، 1/156.
35- مجالس التذكير: ص 146.
36- أحمد: المسند، 33/14.
37- مسلم: الصحيح، كتاب الإمارة، باب بيان الشهداء، 6/51.
38- مجالس التذكير: ص 147.
39- مجالس التذكير: ص 148.
40- مجالس التذكير: ص 197.
41- مجالس التذكير من حديث البشير النذير، ص 192.
42- عن إبراهيم قال:"بلغني أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل في كفة وسيئاته في الكفة الأخرى..."
43- ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، ت فواز أحمد زمرلي، ط1، 1424هـ، 1/102.
44- جامع بيان العلم، 1/127.
45- ابن عبد البر: المصدر نفسه، 2/ 402.
46- مالك بن أنس: الموطأ، ت محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب قصر الصلاة في السفر، باب انتظار الصلاة والمشي إليها، دار إحياء التراث العربي، مصر، دط، دت، 1/160.
47- الموطأ: كتاب السلام، باب جامع السلام، 2/960.
48- مجالس التذكير: ص 69.
49- مجالس التذكير: ص 166.
50- البخاري: الصحيح، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى وضرب الله، 3/1252.
51- مجالس التذكير: ص 166.
52- مسلم: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل نساء قريش، 7/182.
53- مجالس التذكير: ص 164.
54- مجالس التذكير: ص 167.

55– مجالس التذكير: ص 167.

56– البخاري: الصحيح، كتب العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حده في العلم، 1/50.

57– البخاري: نفسه، كتاب العلم، باب عظة الإمام النساء وتعليمهن، 1/49.

58– الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس بن خلف... أسلمت بمكة قبل الهجرة وهي من المهاجرات الأول اللاتي بايعن رسول الله ﷺ وكانت من عقلاء النساء وفضلائهن... روى لها البخاري في كتاب الأدب وفي كتاب أفعال العباد وأبو داود والنسائي المزي: تهذيب الكمال، 35/207.

59– أبو داود: السنن، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت، 4/13.

60– مجالس التذكير: ص 161.

Realism in the Hadith lesson at Sheikh Abdelhamid Ben Badis

Akram BELOMRI (*)(**)

Summary

This subject addresses the issue of realistic dimension in the speeches of El-Sheikh Ibn Badis through clarifying the status of the prophetic Hadith in El-Sheikh's thinking, and deliberately accuracy choose conversations and tab them including conduct intended message less words and eloquent statement, that it is directed to the general Algerians .This was reflected in his call to hold on the Kitab and Sunna As the basis of national identity, fighting heresies among Algerian society, establishing aspects of civil and urbanization among Algerians, and advocacy for learning and education and encourage them.

Sheikh Ben Badis gave women the basic position in Algerian society.

* Maître-assistant (A) – Filière des sciences islamiques – Faculté des sciences sociales et humaines - Université d'El oued – Algérie.

** Doctorant au Département de Kitab et sunna –Université Emir Abdelkader – Constantine – Algérie.